10 me Année No. 462

Lundi - 11 - 5 - 1942

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ عن العدد الواحد

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٤٦٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٥ ربيع ثانى سنة ١٣٦١ — الموافق ١١ مايو سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهرس

وهــــذا كتاب ...

قال لى صديق منذ شهرين : إن العقاد يخرج كتاباً عن محمد . فقلت له : ذلك ما تمناه الناس وتوقعناه نحن منذ أخذ العقاد يعالج بعض هذا الموضوع فى (الرسالة) . ولعل هذا الكتاب يكون الأول فى بابه ؛ لأن العقاد صاحب جد وصراحة ؛ فهو لا يتكلف ما لا يحس، ولا يحسن ما لا يعتقد ، ولا يعتقد ما لا يسوغ فى المنطق . وإذا كان الذين كتبوا عن محمد إنما كتبوا للدين أو للدنيا أو للأدب أو للهوى ، فإن العقاد لن يكتب إلا للعقل . وإذا استراب أكثر الناس بأكثر هذه الكتب لأن صاحب الدين موافق وصاحب الدنيا منافق وصاحب الأدب خدّاع وصاحب الهوى متعصب ، فإن القُرّاء على اختلاف ثقافاتهم ودياناتهم سيُخلدون بثقتهم إلى العقاد لأنه سيكتب غير ما كتب هؤلاء جميعاً

ثم قدّرت فى نفسى النواحى البكر التى سيطرقها العقاد من هذا العالم الأعظم فكأنما قدّرت عن تلقين الغيب : قدّرت أنه لن يكتب ترجمة ولا سيرة ولا قصة ، لأن الناس فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، لم يكتبوا غير ذلك ؛ وذلك الذى كتبوه إنما كان مداره على الوحى والرسالة والمعجزة والدعوة ، وإدراك العظمة أو العبقرية فى هذه الأمور موقوف على الإيمان بها ؛ فلو أن امرأً غير مسلم حاول أن يستشف من خلال ما ينكر من هذه الصور الإسلامية صورة محمد فى نفسه ، لما وجد فيما بقى على الهامش أو علِق بالإطار ما يقنعه بأن محمداً لو لم يكن أعظم

بالرسل بدينه ، لكان أعظم الأبطال بخلقه

فصورة محمد فى نفسه هى الناحية التى طوّف حولها الرُّوّاد ولم يدخلوا ، وحوّم فوقها الورّاد ولم ينزلوا ؛ وهى التى قدّرتها على التخمين فى خطة العقاد ، ثم قرأتها على اليقين فى (عبقرية محمد) . وأشهد الله أنى لو مضيت على المخيّل فيما أكتب عن هذا الكتاب لما كذبنى الظن ، ولا أخطأنى الصواب . ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة ؛ فإذا درسته أو قرأته على ضوء هذا الإيمان تكشف لك عن منطق فحل لا يتناقض فى الرأى ، ولا يتعثر فى الأداء ، ولا يتكثر باللغو ، ولا ينزل عن طبقته حتى فى المقاصد المبتذلة والمعانى المطروقة . وإيمانه بالعقل والرجولة هو الذى بعثه على أن يكتب كتابين فى أدب ابن الرومى وفى سياسة سعد زغلول على كثرة الأدباء والساسة . فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحى هذا الإيمان عن عبقريته « بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يثبّت له الحب فى قلب كل إنسان وليس فى قلب المسلم وكفى » ، « وبالقياس الذى يفهمه المعاصرون، ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين » « ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم فى كل ميزان : عظيم فى ميزان الدين، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم فى ميدان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية[1] »

والحق الذى لا تجوّز فيه أن كتاب « عبقرية محمد » هو التفسير الملهَم المحكم لقول الله تعالى لنبيه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . ولا يدهشنك أن أقول إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الغور والمدى والدلالة فى التفسير والتاريخ حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها وحدودها وألوانها وسماتها كأنطق ما يكون المثال وأصدق ما تكون الحجة . هل تجد معنى من معانى الأخلاق فنى فى شرحه وتشريحه من الريق والمداد على طول القرون ما فنى فى معنى الصداقة والصديق ؟ ومع ذلك تقرأ فى فصل (محمد الصديق) من كتاب العقاد فتجده معنى من معانى العظمة لم يتمثّل فى ذهن كاتب من قبل على هذه الصورة . إقرأ قوله على سبيل المثال : « . . . وهنا أيضاً قد تمت لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة . فأحدقت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ؛ وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة — كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين — وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط القادة بنابليون . بل ربما أحاط الصالحون بالنبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة . أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل معدن ومن كل طراز ؛ وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم ، وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه.

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية الشباب

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الإعجاز فى باب الصداقات »

ذلك سمو العقاد فى المطروق المبتذل ، فما ظنك به حين يعالج الأحرار الأبكار من معانى العبقرية المحمدية فى السياسة والإدارة والرياسة والبلاغة ؟ أما تحليله البراعات الخلقية والنفسية فى محمد الزوج والأب والسيد والعابد ، ودفعه الشبهات المريضة عن دعوة الرسول وعظمته فى تحكيم السيف وتحليل الرق وتعدد الزوجات ، فغاية الغايات فى دقة الفهم وشدة الحجاج وقوة الأسلوب . ولو لا أن العقاد أدركه نسيان الإنسان فأراد غار ثور وكتب غار حراء ، لقلت إن كتابه قبس من الوحى نزل عليه من السماء !

احمد حسن الزيات

أعداد الرسالة الخاصة

فى سبيل الوحدة العربية والثقافة العربية ، ستصدر الرسالة عدداً خاصاً بكل قطر من أقطار العروبة ، ينوه بفضله ويعرف بأهله . وستبدأ بعدد العراق . والمرجو من أدباء كل قطر أن يساوتوا الرسالة على أداء هذا الواجب بإرسال ما يستطيعون من الوثائق والمقالات والصور

(١) ما بين الأقواس من مقدمة الكتاب

رفع عيسى ...

للأستاذ محمود شلتوت

ورد إلى مشيخة الأزهر الجليلة من حضرة عبد الكريم خان بالقيادة العامة لجيوش الشرق الأوسط سؤال جاء فيه : « هل « عيسى » حى أو ميت فى نظر القرآن الكريم والسنة المطهرة ؟ وما حكم المسلم الذى ينكر أنه حى ؟ وما حكم من لا يؤمن به إذا فرض أنه عاد إلى الدنيا مرة أخرى ؟ » . وقد حول هذا السؤال إلى فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء فكتب ما يأتى :

... أما بعد ، فإن القرآن الكريم قد عرض لعيسى عليه السلام فيما يتصل بنهاية شأنه مع قومه فى ثلاث سور :

١ — فى سورة آل عمران قوله تعالى : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنّا بالله ، واشهد بأنّا مسلمون : ربّنا ، آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ؛ إذ قال الله : يا عيسى ، إنّى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهّرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » : ٥٢ — ٥٥

٢ — وفى سورة النساء قوله تعالى : « وقولهم : إنّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيما » : ١٥٧ — ١٥٨

٣ — وفى سورة المائدة قوله تعالى : « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلـهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد » : ١١٦ — ١١٧

***

هذه هى الآيات التى عرض القرآن فيها لنهاية شأن عيسى مع قومه ، والآية الأخيرة (آية المائدة) تذكر لنا شأناً أخرويًّا يتعلق بعبادة قومه له ولأمه فى الدنيا وقد سأله الله عنها وهى تقرر على لسان عيسى عليه السلام أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به : « اعبدوا الله ربى وربكم » ؛ وأنه كان شهيداً عليهم مدة إقامته بينهم ، وأنه لا يعلم ما حدث منهم بعد أن « توفاه الله » !

وكلمة « توفى » قد وردت فى القرآن كثيراً بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها ، ولم تستعمل فى غير هذا المعنى إلا وبجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم . إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة . توفته رسلنا . ومنكم من يتوفى . حتى يتوفاهن الموت . توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين »

ومن حق كلمة « توفيتنى » فى الآية أن تحمل على هذا المعنى المتبادر وهو الإماتة العادية التى يعرفها الناس ، ويدركها من اللفظ ومن السياق الناطقون بالضاد . وإذن فالآية لو لم يتصل بها غيرها فى تقرير نهاية عيسى مع قومه لما كان هناك مبرر للقول بأن عيسى حى لم يمت

ولا سبيل إلى القول بأن الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء بناء على زعم من يرى أنه حى فى السماء ، وأنه سينزل منها آخر الزمان ، لأن الآية ظاهرة فى تحديد علاقته بقومه هو لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان وهم قوم محمد باتفاق لا قوم عيسى

أما آية النساء فإنها تقول « بل رفعه الله إليه » وقد فسرها بعض المفسرين بل جمهورهم بالرفع إلى السماء ، ويقولون : إن الله ألقى على غيره شبهه ، ورفعه بجسده إلى السماء ، فهو حى فيها وسينزل منها آخر الزمان ، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويعتمدون فى ذلك :

أولاً : على روايات تفيد نزول عيسى بعد الدجال ، وهى روايات مضطربة مختلفة فى ألفاظها ومعانيها اختلافاً لا مجال معه للجمع بينها ؛ وقد نص على ذلك علماء الحديث . وهى فوق ذلك من رواية وهب بن منبه وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهما فى الحديث عند علماء الجرح والتعديل .

وثانياً : على حديث مروى عن أبى هريرة اقتصر فيه على الإخبار بنزول عيسى ؛ وإذا صح هذا الحديث فهو حديث آحاد . وقد أجمع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات .

وثالثاً : على ما جاء فى حديث المعراج من أن محمداً صلى الله عليه وسلم حينما صعد إلى السماء وأخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة فتفتح له ويدخل ، رأى عيسى عليه السلام هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية . ويكفينا فى توهين هذا المستند ما قرره كثير من شراح الحديث فى شأن المعراج وفى شأن اجتماع محمد صلى الله عليه وسلم بالأنبياء وأنه كان اجتماعاً روحياً لا جسمانياً « انظر فتح البارى وزاد المعاد وغيرها » .

ومن الطريف أنهم يستدلون على أن معنى الرفع فى الآية هو رفع عيسى بجسده إلى السماء بحديث المعراج بينما ترى فريقاً منهم يستدل على أن اجتماع محمد بعيسى فى المعراج كان اجتماعاً جسدياً بقوله تعالى : (بل رفعه الله إليه) وهكذا يتخذون الآية دليلاً على ما يفهمونه من الحديث حين يكونون فى تفسير الحديث ، ويتخذون الحديث دليلاً على ما يفهمونه من الآية حين يكونون فى تفسير الآية !

ونحن إذا رجعنا إلى قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك إلى» فى آيات آل عمران مع قوله : « بل رفعه الله إليه » فى آيات النساء وجدنا الثانية إخباراً عن تحقق الوعد الذى تضمنته الاولى ، وقد كان هذا الوعد بالتوفية والرفع والتطهير من الذين كفروا ، فإذا كانت الآية الثانية قد جاءت خالية من التوفية والتطهير ، واقتصرت على ذكر الرفع إلى الله فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر فى الأولى جمعاً بين الآيتين .

والمعنى أن الله توفى عيسى ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا .

وقد فسر الألوسى قوله تعالى : (إنى متوفيك) بوجوه منها وهو أظهرها « إنى مستوفى أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك ؛ وهو كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام لأنه يلزم من استيفاء الله أجله وموته حتف أنفه ذلك » وظاهر أن الرفع الذى يكون بعد التوفية هو رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله : (ومطهرك من الذين كفروا) مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم . وقد جاء الرفع فى القرآن كثيراً بهذا المعنى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع . نرفع درجات من نشاء . ورفعنا لك ذكرك . ورفعناه مكاناً علياً . يرفع الله الذين آمنوا » الخ ... وإذن فالتعبير بقوله : « ورافعك إلى » وقوله : « بل رفعه الله إليه » كالتعبير فى قولهم : « لحق فلان بالرفيق الأعلى » وفى « إن الله معنا » وفى « عند مليك مقتدر » وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول فى الكنف المقدس . فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه) ؟ اللهم إن هذا لظلم للتعبير القرآنى الواضح خضوعاً لقصص وروايات لم يقم على الظن بها فضلاً عن اليقين برهان ولا شبه برهان !

وبعد فما عيسى إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، ناصبه قومه العداء ، وظهرت على وجوههم بوادر الشر بالنسبة إليه ، فالتجأ إلى الله شأن الأنبياء والمرسلين فأنقذه الله بعزته وحكمته وخيب مكر أعدائه . وهذا هو ما تضمنته الآيات « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله » إلى آخرها ، بيّن الله فيها دقة مكره بالنسبة إلى مكرهم ، وأن مكرهم فى اغتيال عيسى قد ضاع أمام مكر الله فى حفظه وعصمته « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا » فهو يبشره بإنجائه من مكرهم ورد كيدهم فى نحورهم ، وإنه سيستوفى أجله حتى يموت حتف أنفه من غير قتل ولا صلب ، ثم يرفعه الله إليه . وهذا هو ما يفهمه القارئ للآيات الواردة فى شأن نهاية عيسى مع قومه متى وقف على سنة الله مع أنبيائه حين يتألب عليهم خصومهم ، ومتى خلا ذهنه من تلك الروايات التى لا ينبغى أن تحكم فى القرآن ،

ولست أدرى كيف يكون إنقاذ عيسى بطريق انتزاعه من بينهم ورفعه بجسده إلى السماء مكراً ؟ وكيف يوصف بأنه خير من مكرهم مع أنه شئ ليس فى استطاعتهم أن يقاوموه ، شئ ليس فى قدرة البشر ! ألا إنه لا يتحقق مكر فى مقابلة مكر إلا إذا كان جارياً على أسلوبه غير خارج عن مقتضى العادة فيه . وقد جاء مثل هذا فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

والخلاصة من هذا البحث :

١ — أنه ليس فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض

٢ — أن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه ، ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه

٣ — أن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه فيها حى إلى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان فإنه لا يكون بذلك منكرا لما ثبت بدليل قطعى فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه ولا ينبغى أن يحكم عليه بالردة ، بل هو مسلم مؤمن ، إذا مات فهو من المؤمنين يصلى عليه كما يصلى على المؤمنين ويدفن فى مقابر المؤمنين ولا شية فى إيمانه عند الله والله بعباده خبير بصير

أما السؤال الأخير فى الاستفتاء وهو (ما حكم من لا يؤمن به إذا فرض أنه عاد مرة أخرى إلى الدنيا) فلا محل له بعد الذى قررناه ولا يتجه السؤال عنه والله أعلم .

محمود شلتوت

خصومات أدبية !

للأستاذ توفيق الحكيم

من كان يتصور أن دعوتى إلى الصفاء بين الأدباء تثير خصومات أو ذكريات عن خصومات ! فلقد كتب الأستاذ « عباس محمود العقاد » فى العدد الماضى من « الرسالة » قصة طريفة أهداها إلىّ . هى الآتية :

« قيل إن الدكتور طه حسين خرج من وظيفته بالجامعة المصرية قبل سنوات . وقيل أنه أثنى على الأستاذ توفيق الحكيم فى بعض ما كتب وهو على جفوة مع رؤساء تلك الأيام . وقيل إن الأستاذ توفيق أشفق من مغبة تلك الجفوة فكتب يقول إنه لا يريد مدحاً من أحد ... وأدرك شهر زاد الصباح أو المساء على قصة أخرى تمثل اليوم مع العقاد لأن خصومته قد تشبه خصومة الدكتور طه حسين قبل سنوات ... »

والتعليق على هذه القصة الطريفة لا يحتاج إلى عناء . لأن الأساس الذى بنيت عليه وهو شبهة الخصومة بينى وبين العقاد قد انهار فى اليوم ذاته الذى ظهر فيه مقاله . فقد طلع لحسن الحظ عدد مجلة الثقافة فى مساء ذلك النهار وفيه تحية منى للعقاد وثناء على كتابه « عبقرية محمد » بما هو أهله

يضاف إلى ما تقدم أن « ما يدريه العارفون وأوشك أن يدريه غير العارفين » هو أن موقفى اليوم يشبه فى كثير من الوجوه موقف العقاد . وأن من بين المجلات والصحف والأقلام ما يعلن تجريحى وخصومتى بمختلف الأسباب لعين الأغراض

بقى بعد ذلك عنصر واحد من عناصر القصة سكت طويلاً عن تجليته ظناً منى أنه لن يؤخذ على سبيل الجد . أما وقد أخذه الأستاذ العقاد على أنه حقيقة ، فمن الواجب إذن أن أوضح ولو كان فى الإيضاح إساءة للدكتور طه . فإن هذا الوقت هو أحب الأوقات عندى لإساءته لا لإرضائه

إن حقيقة الخصومة بينى وبين طه حسين فى تلك الأيام من عام ١٩٣٤ كانت خصومة أدبية صرف ، ولكن الدكتور طه أراد أن يقحم فيها عنصر السياسة ليظهرنى فى صورة « يهوذا » ويظهر نفسه فى صورة « المسيح » . فاخترع تلك القصة اختراعاً ولكن الحقيقة ما لبثت أن ظهرت فى اليوم التالى واضحة مبينة

إلى هنا ينتهى التعليق على هذه القصة . ولكن هنالك قصة أخرى للأستاذ العقاد مهداة إلىّ أيضاً ، وربما احتاجت إلى تعليق طويل لأنها تمس قضية أدبية تحدث فى جميع الآداب فى كل زمان . تلك هى قضية الناقد والكاتب . فقد ذكر الأستاذ العقاد إنى أنكر أن الدكتور طه حسين رفع من شأنى بما كتب عنى . وأنا حقاً أنكر ذلك كل الإنكار ومن يحرص على كرامة الفن لا يسعه أن يقول غير هذا القول . فما من مخلوق على الأرض يرفع أو يخفض من شأنى غير فنى ولما ترجم هذا الفن أو بعضه إلى لغات أجنبية وجد من أعلام نقادها من يرفع شأنه كما وجد فى اللغة عربية طه وأمثاله . فالفن هو الذى يكرم نفسه أو يمتهنها فى كل مكان وزمان يحل فيهما . حقاً أن طه حسين استقبل كتاب أهل الكهف استقبالاً رائعاً ، لكن لا ينبغى أن ننسى غيره . فبمراجعة تاريخ الحوادث يتضح أن أول من نوه بالكتاب تنويهاً جميلاً كان الشيخ مصطفى عبد الرازق ثم الأستاذ المازنى ثم الأستاذ العقاد على هذا الترتيب . ولعل العقاد قد أشار في نقده إلى انتفاع بعض المؤلفين الأوربيين بجوهر الأسطورة ونفى عن « أهل الكهف » تهمة الاقتباس أو النقل عن الأجانب وأظنه فضلها من حيث طريقة التصرف على ما قرأ فى بعض اللغات عن فكرة القصة . فلما اطمأن طه حسين إلى آراء هؤلاء أقبل فصاح صيحته المشهورة كأنها صيحة « يوحنا المعمدان » وهو يبشر بالمسيح . فقد قال بهذا النص : « أما قصة الكهف » لحادث ذو خطر ، لا أقول فى الأدب العربى العصري وحده . بل أقول فى الأدب العربى كله . وأقول هذا فى غير تحفظ ولا احتياط . وأقول هذا مغتبطاً به مبتهجاً له . وأى محب للأدب العربى لا يغتبط ولا يبتهج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول أن فناً جديداً قد نشأ فيه وأضيف إليه . وإن باباً جديداً قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه وينتهوا منه إلى آماد بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن . نعم هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ فى الأدب العربى عصراً جديداً . . . ويمكن أن يقال إنها أغنت الأدب العربى وأضافت إليه ثروة لم تكن له . ويمكن أن يقال إنها

قد رفعت من شأن الأدب العربي وأتاحت له أن يثبت للآداب الأجنبية الحديثة والقديمة ... بل يمكن أن يقال إن الذين يحبون الأدب الخالص من نقاد أجانب يستطيعون أن يقرأوها إن ترجمت لهم، فسيجدون فيها لذة قوية، ويجدون فيها متاعاً خصباً وسيثنون عليها ثناءاً عذباً كهذا الذي يخصون به القصص التمثيلية البارعة التي ينشئها كبار الكتاب الأوربيين »

وكان لتلك الكلمة أثر قوي ذو دوي لأن طه حسين وضع الأمر كما رأينا في صيغة التقرير بمذهب جديد. كأنه «سانت بوف» يعلن أمر المذهب الرومانتيكي عند ظهور تمثيليات « هوجو » !! ولنسلم بأن طه حسين هو النشيد الأول بشأن أهل الكهف ومؤلفها. فهل هذا حدث جديد في تاريخ الآداب؟ ألم يصح مثل هذه الصيحة « تورجنيف » عند ما استقبل أول أعمال « تولستوى » قائلاً: « ظهر كاتب روسيا الأعظم! » أو لم يفعل مثل ذلك « أرنولد بنيت » عند ما أشاد بقصة « الدس ها كسلي » بقوله: « هذا كاتب يلحق مباشرة بقصاصي روسيا العظام! » أو لم يصنع هذا « أناتول فرانس » بمذكرات ماري باسكرشيف » عند ما أعلن أنها أثر خالد للانسانية! فإذا هذه الأعمال قد ظهرت ومؤلفوها قد برزوا للعالم بين يوم وليلة. هل استلزم ذلك التحميل بأثقال الديون والتكبيل بحبال الجميل نحو أشخاص النقاد؟ أو أن الأمر لا يعدو في تلك البلاد أن ناقداً أدى واجبه بأمانة وإخلاص، لا نحو شخص من الأشخاص ولكن نحو آداب وطنه وفن بلاده؟ لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض. وإن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشترى من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد آناء الليل وأطراف النهار. شأنه شأن القاضي الذي يصدر حكماً ينقل أحد المتقاضين من الفقر إلى الغنى. فيظل طول حياته يقول في مجالسه ... أنا الذي أغنيت فلاناً ونقلته من حال إلى حال وخلقته هذا الخلق الجديد. وينسى أنه كان مظهراً لحق هـذا الفلان لا أكثر ولا أقل. اللهم أن في هذا لأهداراً لكرامة العدالة وكرامة الفن!

ولكن من الإنصاف أن أقول: إني لا أشك في أن طه حسين في أول الأمر كان يصدر حقاً عن عقيدة الناقد الذي يؤدي واجب النقد والفن وحدها، فلم يكن قد رآني وما كنت قد رأيته، وما كان تصادم الطباع والخصال قد لعب دوراً في تقدير الأمور، وسواء كان طه مخطئاً أو مصيباً في رأيه الذي أبداه، فهذا ليس من شأني ولا من شأن الأشخاص، إنما هو من شأن النقاد ورجال الجامعة والباحثين من هذا العصر وما بعده ممن يعنون بتمحيص مذهب أستاذ من أساتذة النقد والأدب.

على أني إذا تفرغت للنقد يوماً، فإني أرجو أن أؤدي واجبي بمثل هذه الحرارة والأمانة والقوة نحو آثار طه وغيره من الأدباء؛ وإذا تحقق أملي وأقمت في أوربا بعد الحرب، فسوف يكون من شأني القيام بهذا العمل نحو هذه الآثار في تلك البلاد

إلى هنا ينتهي ما بيني وبين طه حسين، إذا كانت شؤون الآداب والفن هي حقاً ملك البحث والدرس والزمن والوطن لا ملك الأشخاص

أما مشاعري الخاصة كانسان نحو الدكتور طه، فليس الظرف اليوم مواتياً للأطناب في وصفها، وسأختار الزمان والمكان الملائمين للافاضة بها دون أن يحمل فعلي على غير محمله

وأخيراً، أوجه خطابي إلى الأستاذ العقاد قائلاً:

« إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها « الرافعي » رحمه الله! »

أبهذه السرعة تضع الناس في صف أعدائك؟ لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس، ولقلة ما وجدت من خيرهم، أصبحت مثل « هملت »: تستل سيفك لتضرب من خلف الأستار دون تبين الوجه. فطعنت صديقاً وأنت لا تدري

توفيق الحكيم

خسرو وشـــيرين

في التصوير الإسلامي

للدكتور محمد مصطفى

— ٤ —

لما رحل خسرو إلى بلاد الروم، ليطلب مساعدة الإمبراطور موريس على القائد بهرام جوبين، ضاق في عيني شيرين ريف أرمينية على اتساع أرجائه، وكثرة ملاهيه، وتنوع ضروب التسلية فيه؛ فرجعت إلى عمتها مهين بانو، حزينة على فراق حبيبها، آسفة لقسوتها عليه، فنشطت عمتها في جلب السرور إلى قلبها، والترويح عن نفسها، وإحاطتها بما ينسيها أحزانها

وكان خسرو قد نجح — بفضل مساعدة إمبراطور الروم — في استرداد عرش أجداده، وتوج للمرة الثانية ملكا على إيران، وحكم بالعدل بين رعيته، فصار محبباً إليها. ولكنه لم يجد فيما يحيط بجلال الملك من مباهج الحياة، ما يخفف عنه لوعة الحزن والأسى، التي يشعر بها في قرارة نفسه لغياب شيرين

وماتت مهين بانو، تلك العمة الطيبة القلب، فصارت شيرين ملكة أرمينية، ولكنها لم تستطع نسيان أحزانها، بل زادت كآبة لما علمت بزواج خسرو من مريم. وأرادت أن تجد العزاء والسلوى في الشعور بقرب حبيبها منها، فرحلت من أرمينية إلى «قصر شيرين» بين الهضاب المرتفعة في إيران، ومعها جمع كبير من صويحباتها وأتباعها، كان بينهم شابور، بقي في خدمتها بأمر من صديقه خسرو، يرعاها في وفاء وإخلاص. ولما وصلت إلى قصر شيرين أرسلت شابور إلى المدائن، بعد أن أوصته ألا يخبر خسرو عن وجودها في قصرها، مخافة أن تعكر عليه صفو حياته الزوجية. ولكن شابور لم يكترث لتحذيرها، وجاء إلى المدائن حيث وجد خسرو فرحاً مسروراً، لتلقيه أنباء مقتل القائد بهرام جوبين، فأخبره بوجود شيرين على مقربة، وزاده بذلك طرباً وحبوراً، ثم رجع إلى قصر شيرين

وكان لقصر شيرين — بالرغم من كل ما فيه من الاستعدادات العظيمة لاستقبال ملكة أرمينية — نقيصة واحدة، هي وجود المراعي والأغنام بعيداً عنه، في ناحية الجبل الأخرى، ولهذا السبب لم يكن في استطاعة شيرين أن تحصل على أي مقدار من اللبن. واشتكت من ذلك يوماً ما أثناء وجود شابور، فأخبرها عن مثّال ماهر، واسع الحيلة، كان زميلاً له في أيام الدراسة، اسمه فرهاد[١]، يظن أن في استطاعته أن يذلل هذه العقبة وأن يعمل شيئاً في سبيل إرضاء رغبتها. وذهب شابور فأحضر فرهاد[٢]. وما كاد هذا يقف بين يدي شيرين ويتطلع إليها، حتى غمره حبها وتولاه الذهول، فلم يفقه من كلامها شيئاً، واضطر أصدقاؤه بعد ذلك أن يفسروا له رغباتها، وأخذ فرهاد في تنفيذ ذلك بجد واجتهاد، حتى أمكنه بعد شهر واحد أن ينحت في الصخر قناة تخترق الجبل، وتصل بين القصر من ناحية وبين المراعي في الناحية الأخرى. وأخذ رعاة الأغنام يحلبون اللبن ويسكبونه في القناة فيجري فيها إلى القصر، وبذلك صار في إمكان شيرين أن تحصل في صباح كل يوم على ما تحتاج إليه من اللبن الطازج[٣]. وأعجبت شيرين بهذا العمل الهائل الذي يفوق مقدرة البشر، فأطنبت في مديح فرهاد، وأرادت أن تكافئه بما يريد من الذهب والأحجار الكريمة، ولكنه أبى أن يأخذ شيئاً، وفر هارباً إلى الصحراء، حيث هام على وجهه كالمجنون.

وسمع خسرو بهذا الحب فأرسل من أحضر فرهاد من

(١) نظم بعض الشعراء بالإيرانية والتركية قصة «فرهاد وشيرين» على حدة، معتمدين في نظمها على ما رواه الشاعر نظامي عن هذه القصة في منظومة «خسرو وشيرين». انظر الشاهنامه ج ٢ ص ٢٣٧ في الحاشية و E. J. W. Gibb, History of Ottoman Poetry

(٢) انظر صورة الشابور وهو يقدم فرهاد لشيرين في Mehmet Aga-Oglu, The Khusraw wa Shirin Manuscript in the Freer gallery, in: Ars Islamica, IV (1937) fig. 3.

(٣) يروى ابن الفقيه في كتاب البلدان — طبعة ليدن — ص ١٥٩، أن الملك خسرو جلس مع شيرين يتناول الشراب، فلما سكر قال لشيرين: سليني حاجتك. فقالت: حاجتي أن يكون لي في هذا الباغ (قصر شيرين) نهران من حجارة يجري فيهما الخمر واللبن. قال: أفعل ذلك. ونسيه الملك، فاستحيت شيرين أن تذكره، فعمل الفهربذ غناء وذكره حاجة شيرين فأمر ببناء النهرين.

الصحراء ، ولما مثل بين يديه ، حاول أن يثنيه عن حبه لشيرين ، ولكنه لم يفلح بالوعد ولا بالوعيد أن يزحزحه قيد أنملة بعيداً عن ذلك . وأخيراً عمد خسرو إلى الحيلة ، فوعده أن يزوجه شيرين ، إذا استطاع أن يشق طريقاً في صخر جبل بيسُتون[1] ظناً منه أن ذلك سيصعب عليه . ولكن فرهاد وافق في الحال ، وقبل هذا الشرط ، ورحل إلى جبل بيستون ، حيث بدأ بنحت لوحة عليها صور شيرين وخسرو وشبديز ، وجعل من صورة شيرين رمزاً لحبيبته ، لكي يراها في كل لحظة تطل عليه لترى بنفسها مقدار كده وتعبه وما يبذله من العناء في سبيل الزواج بها ، ولكي يلجأ إليها في ساعات فراغه ليبثها غرامه وشقاء قلبه في حبها . وبلغ شيرين ذلك ، فجاءت إلى جبل بيسُتون لتسرى عن فرهاد ، ولكنه عند ما فوجئ برؤيتها ، كاد أن يفقد صوابه ، لفرط ما طغى عليه من السرور ، فأشفقت عليه شيرين وأعطته جرعة من شراب ، تمكن بها من استعادة صوابه الفاقد ، فحدثها عن مبلغ هيامه بها وعن حالته التعسة .



(شكل ١)

وفي (شكل ١) جاءت شيرين لزيارة فرهاد ، وهي راكبة على جواد أصيل ، عند ما علمت بما يكنه لها من الحب المبرح ، ونراه هنا — ومعه أدوات النحت — حيث يعمل في الطريق الذي يشقه بجبل بيسُتون ، وهو راكع أمامها يرتشف من قَعْب[1] خزفي جرعة من شراب أعطته إياه شيرين لتهدئة ما طغى عليه من الوجدان بتأثير هذه الزيارة المفاجئة . وإلى جوار فرهاد لوحة نحتها في الصخر لتخليد ذكرى فتح هذا الطريق العظيم ، وقد نحت في أعلى هذه اللوحة صورة خسرو وهو واقف بين حبيبته شيرين وبين موبذ الموبذان[2] ، وفي أسفلها صورته وهو راكب على الفرس شبديز . وقد أراد المصور أن يمثل هنا الصور الشهيرة التي نحتها المثال فرهاد في صخور « طاق بُستان » والتي خلدت لهذا المثال شهرة واسعة[3] (أنظر شكل ٢ القادم) . ونلاحظ في هذه الصورة الغبار الذي يتطاير خلف جواد خسرو على هيئة السحب الصينية « تشي » ، وهذا يدل على مقدار ما بلغه تأثير التصوير الصيني في أسلوب مدرسة شيراز التيمورية في إيران . ومن ميزات أسلوب هذه المدرسة ما نراه في هذه الصورة من الحركة والحياة في رسم المنظر في الهواء الطلق ، بخلاف ما كان متبعاً في المدارس السابقة لهذه ، من رسم المناظر في داخل المباني وما يقتضيه ضيق المكان من الجمود الذي يظهر في رسم الصور . كما أن رسم الأشجار المورقة المحيطة بالمنظر صار منذ هذا العصر من التقاليد المتبعة في تصوير المناظر الخارجية[4] وهذه الصورة[5]

(١) يوجد مكان على بعد عشرين ميلا إلى الشمال من كرمانشاه به طريق منحوت في الصخر بجبل بيستون يقال إنه من عمل فرهاد . أنظر : Gibb, I, p. 322 n. 1

(١) قعب والجمع قعاب ، آنية للشرب تشبه فنجان الشاي ولكنها بدون يد ، يقال لها بالفرنسية Coupe وبالانجليزية Cup وبالألمانية Schale . والقعب هو الاناء الذي يكفي ما يحتويه من الشراب لاطفاء ظمأ الرجل أو الرجلين . والصغير من هذا النوع من الآنية يسمى « غمر » ، وهو الذي لا يكفي ما يحتويه من الشراب لاطفاء ظمأ الرجل الواحد . انظر قاموس Lane كلمة « قعب » والمراجع المذكورة فيه .

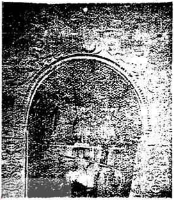
(٢) موبذ الموبذان ، لقب رؤساء الزردشتيين ، وكان للموابذة شأن عظيم في عهد الدولة الساسانية . انظر الشهنامه ، مدخل ص ٧٧

(٣) انظر : B-W-G., p. 65, no. 42 c.

(٤) انظر : S. P. A., III, p. 1846

(٥) منقولة عن : B-W-G, pl. XXXIII B . وللمقارنة انظر : Mehmet Aga-Oglu, in : Ars Islamica, IV (1937), fig. 4

فى مخطوط للمنظومات الخمس للشاعر نظامى يمكن تأريخه بين سنتى ٨١٣ و٨٢٣ هجرية (١٤١٠ — ١٤٢٠ م) ، وهو محفوظ فى مجموعة كارتيير بباريس



(شكل ٢)

وفى (شكل ٢) النقوش الخالدة التى يقال إن المثّال فرهاد نحتها بداخل كهف الملك خسرو برويز فى طاق بستان . ويقع طاق بستان فى ناحيـة الشمال الشرقى من كرمانشاه ، فى سفح جبل بيستون[1] فى مكان ملئ بالخضرة الناضرة والمياه الجارية . ويتألف من عدة كهوف أمر بنحتها بعض ملوك الأكاسرة فى صخر الجبل . وينسب أكبر هذه الكهوف للملك خسرو برويز[2] ، وفى الحائط الخلفى لهذا الكهف نحت فرهاد هذه النقوش[3] ، فنرى فى أعلى الصورة خسرو بين شيرين وموبذ الموبذان ، أو كما يقول رأى آخر بين الإلهين هرمز وأناهيتا .. هما يبايعانه بالملك . وفى أسفل الصورة خسرو على جواده شبديز[1]

ويذكر أبو عمران الكسروى طاق بستان فى الأبيات الآتية[2]

وهم نقروا شبديز فى الصخر عبرةً ... وراكبه برويزُ كالبدر طالع
عليه بهاء الملك والوفدُ عكّفٌ ... يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه شيرينُ واللحظ فاتنٌ ... وتعطو بكف حسّنتها الأشاجع
يدوم على كر الجديدين شخصه ... ويلتى قويم الجسم واللون ناصع

ويروى ابن الفقيه[3] أن بعض الملوك اجتاز هناك ونزل وشرب ؛ وأعجبه الموضع فاستدعى خلوقا وزعفرانا نخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء :

كاد شبديز أن يحمحم لما ... خُلّق الوجه منه بالزعفران
وكان الهمام كسرى وشيريـ ... ـن مع الشيخ موبَذ الموبذان
من خَلوق قد ضمخوهم جميعاً ... أصبحوا فى مطارف الأرجوان

(له صلة)

محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

(١) انظر : F. Sarre, Die Kunst des alten Persien, S. 38

(٢) يخالف الدكتور Erdmann هذا الرأى فى البحث الذى كتبه عن تاريخ طاق بستان . انظر : K. Erdmann, Das Datum des Tag-i-Bustan, in : Ars Islamica, IV (1937), p. 78 — 97. وانظر أيضاً المراجع المذكورة فى S. P. A., I, p. 496 n. 1 عن هذا الموضوع

(٣) هذه الصورة منقولة عن : K. Erdmann in: Ars Islamica, IV (1937), fig. 8.

(١) انظر : Friedrich Sarre, Sasanian Stone Sculpture, in : S. P. A., I, p. 598

(٢) انظر كتاب البلدان لابن الفقيه — طبعة ليبزج — ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٣) فى كتاب البلدان — ٢٠٣

في سبيل إصلاح الأزهر

للأستاذ محمد يوسف موسى

ليس كثيراً على (الرسالة) الغراء وصاحبها الجليل أن يُشغلا بالأزهر وإصلاحه ، وليس معنى إفراده بالكتابة ولفته لواجبه أنه دون الجامعة فهماً لتبعاته وقياماً بها . ولكن معنى هذا أن الأزهر لمصر وللعالم الإسلامي عامة ، كالقلب به صلاحه وقوامه ، وكالمنارة تهدى الضال وترشد السفْر بما تبعث من ضوء وهدى .

إنه الذي يقوم على ثقافة ناشئة الإسلام العالية من الصين في الشرق إلى المغرب الأقصى بأفريقية

لهذا كان حريًّا بنا إتمام النظر والدرس ، والتعمق في التفكير والفحص ، لهذه الجامعة التي هي رابطة بلاد الإسلام ، لعلنا نقف على الداء ونصيب الدواء ، فينهض الأزهر بعد أن طال عليه الأمد وهو وسنان ، ويمضى لغايته قُدُماً بعد طول عثار ، ويعود كما كان مصدر العلم النافع والعرفان الذي به ملاك الدين والدنيا .

لا ريب في أن الأزهر تخلف عما يراد منه ، يعرف هذا من اتصل به تلميذاً أو مدرساً ، ويشكو منه أبناؤنا وبخاصة غير المصريين الذين تركوا بلادهم خماصاً ليعودوا إليها بطاناً مليئين بالعلوم المجدية ، فإذا قلوبهم واجفة خشية أن يرجعوا إلى أوطانهم كما جاءوا إلينا بعد أن أضاعوا زهرة العمر ! هذا حق ، ولكن ما علة هذا وما أسبابه ؟ وهل إذا تبيَّنا العلة كان من السهل أن نطبّ لها ونقتلعها من جذورها ؟

أعتقد أنه من الجرأة والمجازفة أن يزعم أحد منا أنه وقف على الداء كله ، وعرف له العلاج الشامل الكامل . ومع هذا كان من الواجب أن يدلى كل من تهيأت له الأسباب برأيه ، على أن يكون لنا من مجموع هذه الآراء ما يعين على تقويم المعوج ويهيئ السبيل للخير المرجى

***

١ — أول ما يلفت النظر فيما نحن بصدده أن طائفة منا تعيش في هذه الأيام بعقلية رجال القرون الوسطى . المدرس لا يعنيه إلا أن يفهم الكتاب المقرر وأن يُفهمه لطلابه ؛ فإن يسر الله والطلاب له هذا ، حمد الله ورأى أنه قام بواجبه . لكن هذا الكتاب مليئاً بالمسائل والمشاكل اللفظية ، ومحشواً بغير قليل من الأخطاء العلمية ، فذلك لا يغير من وضع المسألة لدى الطلاب وعامة المدرسين ، ولا يلفتهم إلى محاولة فهم العلم نفسه والوصول إلى الحق ، سواء أكان في هذا الكتاب أم في غيره !

٢ — ثم لا يكاد الكثير منا يحس أن للأزهر رسالة يجب أن يضطلع بها ، ودوراً عليه أن ينهض بأعبائه . ولو أننا نفقه رسالتنا ونؤمن بها لما كان في أمورنا هذا الوهن ، وفي سُبلنا هذا العوج ، ولكُنا أعرف بالإصلاح وأهدى لسبيله ، ولأصبنا من النجاح — على الأقل — ما أصاب رجال الجزويت المنبثين في شرق العالم وغربه

هؤلاء يفهمون رسالتهم التي وهبوها أموالهم وأنفسهم ، وهي غرس الدين المسيحي في قلوب من يلون أمر تربيتهم وتثقيفهم ، ونشر هذا الدين في جنبات الأرض جميعاً . لهذا يدرسون دينهم دراسة وافية ، كما يدرسون الدين الإسلامي كذلك ، لعلهم يجدون فيه ثغرة ينفذون منها للدعاية لدينهم . ومع هذه الدراسات الدينية العالية تراهم يشاركون مشاركة طيبة في العلوم الاجتماعية والعمرانية وفي الفلسفة والآداب ، ويتوسلون بهذه العلوم كلها ليصلوا إلى ما جعلوه لأنفسهم غرضاً وغاية . وهم في أمورهم عامة مخلصون متفانون ، لا يتهيبون عملاً ، ولا ينكصون عن تضحية ، يأتمرون ويتباحثون ويكيفون أنفسهم ومناهجهم حسب ما توحي به الأيام والمناسبات

أما نحن معشر الأزهريين فقد جهلنا العالم فأنكرناه ونكرنا ، وتجهمنا للعناصر الأخرى التي تتألف منها الأمة فتجهمت لنا ، وصرنا نعيش على هامش الحياة لا نحس بالغير ولا يحس بنا . منا من يفهم الدين على أنه شعائر جافة جدبة لا وسائل للفلاح والخير ! ومن يحذق قواعد النحو وأصول البلاغة ، ثم يعسر عليه أن يقيم لسانه بين الناس بأسلوب فصيح نفاذ للقلوب ! ومن

المدنيـــة والإنسان

[إن المدنية التي لا تصون نفسها من الدمار ، لا يمكن أن تصون الإنسان]

للأستاذ حسين الظريفي

كثر الكلام في عناصر المدنية ومظاهرها ، وما لها من فعل وانفعال في كل أبناء الحياة ، وكان من البداهة أن يزيد تأمل الإنسان فيما دخل عليه في وسائل معاشه وطرق تفكيره ، وفيما وراء ذلك من مظاهر النفس والشعور ؟ فالمدنية الحديثة لم تدع شيئاً لم تأخذه بنصيب ، من بعيد أو من قريب ، فلم تقف عند حد الوسط الذي نشأت فيه ، وإنما فاضت عنه إلى خارج الحدود ، وإلى ما وراء البحار والجبال وكل حاجز أقامته الطبيعة في قرونها الطوال ، ولم تتناول مظهراً واحداً من مظاهر الحياة ، وإنما جمعت كل هذه المظاهر ووضعتها في موضع المحو والإثبات ، فأخرجت للناس مظاهر جديدة عليها طابع من التفكير الحديث وما يلي التفكير من إرادة ومن عمل ، ومن نتائج خطيرة تبطل دونها كل محاولة مقابلة

على أن صراعاً قام ولم يزل قائماً بين ما وصل إليه العلم الحديث من فهم للحقائق وقيام بالعمل ، وبين ما يجر هذا العصر وراءه من تراث عقول خلت منذ أن رأت الأرض أول هلال في الأفق . وما زال الصراع قائماً في حرب تستحر هنا وتخف هناك ، فتتغير الحقائق وتتبلور ثم تنصب في شكل جديد تؤثر على الناس فيما لديهم من وسائل الحياة ، وفيما عندهم من أساليب الفكر والبيان

لقد كانت تبشرنا المدنية الحديثة بإحلال الرخاء في كافة الأرجاء ، وكانت أبلغ كلمة تخرج من أفواهها تلك التي تصور الشعوب في وحدة كاملة شاملة غير متنافرة الأجزاء ، تفاهمها دائم ، وسعيها وراء الصالح العام

تلك أمنية تملأ خيال كل مفكر ، وتسيل على لسان كل ذي بيان ؛ إلا أن مدنيتنا الحديثة كانت تحاول إلهامنا اليقين في قرب حلول الساعة التي يكون فيها الناس أمة واحدة ، فشحذت العزائم وانطلقت الجوارح تعمل في هذا الحقل ، والجميع يأملون ويعملون

كان في الإمكان أن يتعارف الناس على غير ما تعارفوا عليه طيلة القرون التي خلت . فتخرج الشعوب عما رزحت تحت أعبائه

يرى الحق فيما قال الغزالي مثلاً وإن كان الخطأ فيه بيناً ، والإلحاد والكفر فيما ذهب إليه الفلاسفة وإن كان الصواب فيه واضحاً ! ومن يعلم الأخلاق ولا يتخلق ، والفلسفة ولا يتفلسف ، والأصول والفقه ولا يجتهد ، وعلم الكلام ولا يستطيع أن يجادل عن الدين خصومه الحاضرين لا من عفت آثارهم الأيام !

وكان من هذا كله ، ومن تخلفنا في الطريق ، أن تجاهلتنا وزارة المعارف في أمور كان لا يصح فيها التجاهل ، وإن أغضينا العين على القذى . أذكر من هذه الأمور ما كان من الوزارة حين ألفت لجنة رسمية لتاريخ أعلام الإسلام ، في التشريع واللغة والأدب وسائر نواحي النشاط العلمي ، فلم يكن فيها أحد من الأزهر ! وما يجرى هذه الأيام بين سمعنا وبصرنا من السفارات العلمية بين رجال الجامعة والعراق ؛ دون أن نخطر على البال فيستعان بنا في هذا السبيل ! وهكذا صرنا كما قال الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

أو كما قال الآخر :

يخلّفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

٣ — وثالثة الأثافي توسيد الأمر أحياناً إلى غير أهله ، والثقة بمن لا يستحق ، ورعاية جانب الطلاب على حساب العلم . وتفصيل هذا في الكلمة التالية إن شاء الله تعالى

وإني لأرجو مخلصاً غاية الإخلاص لفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المراغي ، وموقناً بأنه خير من يفهم الأزهر ورسالته ويقدر على إصلاحه ، والسير به حتى يبلغ الهدف المنشود — أن تكون هذه الكلمة فاتحة لأخريات من إخواني الذين يحسون ما أحس من نقص يجب علاجه وتلافيه وتبعات جسام يجب القيام بها ... والله الهادي إلى الصراط المستقيم .

محمد يوسف موسى
مدرس بكلية أصول الدين

من ضيق في ناحية الحقائق وسعة في ناحية الخيال ، وتسخر الطبيعة بما فيها من قوى كامنة وساكنة لانتفاع الناس بها بعد أن كانت مصادر الهلع في وادي الظنون والأوهام

غير أن المدنية وقد نفذت من المادة إلى داخل النواة فأخرجتها بمظاهر مختلفة فيها منافع للناس ، قد وقفت دون المشاعر فلم تأخذها إلا بطرف يسير ، لا تفتأ فيه أن تنقلب إلى ما كانت عليه متى أثيرت في النفوس تلك النزائز التي تحيا في قاعها ، وتعمل على إحياء السيرة التي كان عليها الإنسان في أول عهده بالحياة ، فكانت هناك بقية مما يتصل بالروح بعيدة عما هي لصيقة بالمادة ، وفي هذه الشقة يضيع التوازن ويحل الاضطراب

واليوم ، وبعد أن قامت الحرب على قدم وساق ولما تزل قائمة تتردد في أسماعنا أصوات أولئك الذين أشعلوها وما زالوا يمدونها بالوقود ؛ وهي تحمل نغمات الوعد بإحلال السلام بعد إنهاء الحرب وإحراز النصر ؛ ولكن فاتهم أن السلام شيء غير مجرد الكلام وأن نزع السلاح لا يضع خيراً ولا يرفع شراً ، وأن أصل الداء فيما نحن عليه من عقائد وأفكار وأخلاق تحدث خروقاً كثيرة في مدنيتنا الحديثة

لقد أردنا من المدنية أن تقينا شرور الطبيعة وأن نجد على راحتها الشفاء من كل داء ، ولكن فاتنا أن المدنية التي لا تقدر على حماية نفسها من الدمار لا يمكن أن تصون غيرها مما يخشى الوقوع فيه . وما دامت المدنية لم تكن في وضع تقوى فيه على رد كل يد ، تخرج عليها مما حولها ومما عندها ، فإن الإنسان ولا ريب غير بالغ ما يريد الوصول إليه من إملاء الحياة بالحياة وطبع الأيام على حد السلام

إن للمدنية يداً دخلت المواد كلها ، ولكنها صنعت فيما صنعت تلك القلاع الطائرة التي تحمل الموت الزؤام ، وتلك البروج المتحركة التي ترمى بشرر كالقصر ، ومن ورائها ضروب من الوسائل التي تنشر الموت والخراب ، ونحن بعد ذلك أولو مدنية وفي تطور إلى الأمام !

أنا لا أنكر أن للمدنية فضلاً سابغاً على بعض المرافق وفي بعض الجهات ، ولكنه فضل غير جامع وغير مانع لما يظهر من نقص وافتقار . لقد أعطتنا المدنية الحديثة متعة جديدة بما ابتكرته من وسائل الترفيه وفنون المسرات ، ولكنها لم تنقص من أطراف ما يدخل الناس من هموم وأحزان ، وإنما زادتها أضعافاً مضاعفة ، وكانت الحياة سلوة أبنائها ، لا يشترون لذائذها إلا بأزهد الأثمان ، فعادت وقطوفها مرفوعة وممنوعة إلا عمن أعطى المال غير صاغر وكان من أهل الثراء

يمكن أن يقال : إن المدنية لم تبلغ بعد شأوها ، وإنها ما زالت دون المدى الذي تسمى إليه ، ولكنها ولا ريب قد بلغت في مختلف مراحلها حداً لم يعد جديراً بها ألا تحسب لأرواح الملايين من الناس أي حساب ، وأن تقيم قوة الحديد والنار في موضع التفاهم وتبادل الآراء ، دون أن يمنع التقاتل ما أعدته الطبيعة من حواجز أقامتها بفعل الأجيال ، ثم انطلقت قوى الخراب والتباب تفعل فعلها في البر والبحر وعلى متون الهواء ، واستحر القتل فاخترقت خطوط الدفاع وتناول الدمار كل مرفق من المرافق . تلك ظاهرة ولا كالظواهر : تبعث في نفسي فكرة الانتقاص على هذه المدنية التي لم تستخدم في شيء بأكثر مما استخدمت في إهلاك النسل والحرث . ولست أشك في أن المدنية الحديثة ذات جروح دامية ، وأن داءها في نفسها ، وأنها الآن يعز عليها الأساة

« بغداد »

حسين الظريفي
المحامي

من مذكرات قاضي شرعي

١ – من التعليم إلى القضاء

للأستاذ علي الطنطاوي

يسألني كثير من الإخوان، كيف وجدت القضاء؟ إني وجدت القضاء راحة جسم وتعب بال، وعلو منزلة وقلة مال، واكتساب علم وازدياد أعداء، وحملاً كبيراً نسأل الله السلامة من سوء عاقبته:

أما أنه (راحة جسم) فذلك أني كنت في التعليم أتكلم ولا أسمع، فصرت الآن أسمع أكثر مما أتكلم. وكنت لا أقدر على السكوت لأني إن سكت تكلم العفاريت (أعني التلاميذ)، حتى أنه ربما أصابني أحياناً أذى في حلقي فجعلني أغص بالماء الزلال، وأشرق بالريق، وأجد للكلمة الواحدة انطلق بها مثل حزة السكين ثم لا أستطيع الصمت دقيقة لئلا يفلت من يدي طرف السلكة فينفرط العقد ويبطل النظام. وكنت أدخل الصف (الفصل) وأخرج منه خمس مرات أو ستاً في اليوم ولا أقعد على كرسي لئلا يرى الشيطان مني غفلة فيعطس في مناخر التلاميذ فيحدثوا في الفصل حدثاً، وياما أكثر أحداثهم! وأيسرها ضجة كضجة حمام انقطع ماؤه كما يقول الشاميون في أمثالهم العلمية. ثم إذا خرجت من الصف لأستريح راحة ما بين الدرسين (الحصتين) لحقني طائفة من الطلاب يسألونني فأقف لهم حتى ينفخ إسرافيل المدرسة في صوره فيحشر الطلاب والمدرسون إلى نار العمل. فأصل آخر النهار بأوله وأنا قائم على أمشاط رجليّ ولساني لا يكف عن الدوران في فمي ... فغدوت الآن ولا عمل لي إلا القعود على كرسي القضاء أقول الكلمة بعد الكلمة وأسمع سيلاً من الكلام مما له موضع أو ليس له مكان، وإلا كتابة القرارات (أي السجلات في عرف الفقهاء)، وقد كفاني الكاتب (أحْمَدَ) الله فعالَه كل ما سوى ذلك من الأعمال، وما ينغص عليّ هذه الراحة إلا خشية ثقل اللسان من كثرة الصمت فلا ينطلق بعد كما كان ينطلق، وإن كان ذلك نعمة ترجى، وإن كان لساني هو مصدر أذاي ومن الخير لي أن يثقل أو يكلّ.

أما (تعب البال) فلأني أحمل على عاتقي حقوق الناس، وأحكم في الأعراض وهي (لعمر أهل المروءة) أثمن من المال وأغلى، فإذا قمت أو قعدت لم أزل مفكراً في هذه القضية وتلك الدعوى، لا لصعوبة فيها أو تعقيد، فطريق القانون واضح لمن كان أكبر همه ظاهر القانون، وكان دينه عبادة حروفه، بل لأنفذ من خلال الفكر إلى مقصد القوانين وهو إقامة العدل. فأنا أفكر لأعرف المحق من المبطل، وأنضو عن المتقاضين ثياب التصنع والرياء لتبدو حقائقهم عارية؛ وما ذلك بالأمر اليسير ولا المطلب الهيّن، وإذا كنت قد وصلت مرة بالفراسة في لحظة خاطفة إلى ما لا يوصل إليه بمرافعة شهود فذلك من فضل الله، بيد أنه لا يدوم، ولا بد من الرجوع إلى الحكم بالشهادات التي قد يعلم القاضي أنها شهادات الزور، وأن الشهود فساق لا عدالة لهم ولا تقبل من مثلهم شهادة، وكانت القرائن تقطع بكذبها — والقرائن والأمارات من أسباب الحكم — كما بيّن ذلك ابن قيم المدرسة الجوزية[1] في كتابه الجليل أعلام الموقعين؛ ولكن لا سبيل لنا إلى الأخذ بها إلا أن تنظر وزارة العدل في دمشق في الاقتراح الذي رفعته إليها في هذا الموضوع وتتخذه أساساً لإصلاح شامل يخلص الناس من شهود الزور الذين صارت لهم جماعات ومراتب وأجور مسعّرة ودخل فيهم من يعتقد الناظر إليه أنه من الأولياء، ويجده مباحثه من العلماء، وهذا شر استطار شرره، وعم الأنام خبره، وشملهم ضرره - فكيف يهدأ بال من يغلب على ظنه أو هو يعلم فساد البيّنة ثم يضطر إلى الحكم بها؟

هذا وقد نجاني الله بما ركب في طبعي من الحدة في الخلق والشدة في الحق من منغصات القضاء، من الوساطات والالتماسات والهدايا والرشوات والولائم والدعوات، وسلمني من ذلك كله أني لا أعرف في الحق لطفاً ولا مجاملة ولا خجلاً ولا فرقاً وأرجو دوام ذلك.

أما (علو المنزلة) فلأن لاسم القاضي دون الحاكم الذي وإن علت رتبته وزادت وظيفته، له في الأسماع رنة إكبار، وفي القلوب صورة إعظام، وله هيبة وله جلال، خلع ذلك المجد عليه أولئك الأبطال نجوم فلك العدل، ودراريه الهاديات، أفذاذ الدهر وأبكار الزمان، الذين يحق لنا أن نفاخر بهم أمم الإنس والجن، وأن نجعل قضاءنا بهم أول ما نعقد عليه الخناصر إذا عددنا المفاخر، وما زال قضاء كل أمة أول مفاخرها، قضاتنا

(١) الجوزية بجوار دار آل العظم في البذورية بدمشق وقد جددت بناءها جمعية الأسعاف الخيري ومدرسة ابن القيم التي كان يقرئ فيها هي كما أظن التي في منحدر الخيضرية (الخضيرية) بدمشق. وقبره في الشاغورية بدمشق معروف رحمه الله.

الأولون شريح وإياس وشريك وأبو يوسف والعز بن عبد السلام ومنذر بن سعيد ومن أذكر الآن ومن لا أذكر ممن يقصر عنه العد ، ويضيق الحصر .

ولو لا أني عامل على تأليف محاضرة وافية بهـذا الغرض ولا يجمل بي إذاعتها بالنشر قبل نشرها بالتلاوة لأفضت في هذا الموضوع إفاضة من وجد مجال القول واسعاً ، والمقول جديداً مسعفاً ، والسامع مصغياً متشوفاً متلهفاً — لذلك يعظم الناس اسم القاضي ، لأنهم يذكرون به هؤلاء وأمثالهم ، وعهداً رحم الله ذلك العهد ، كان فيه القاضي قاضياً في كل خصومة بشرع الله ، حاكماً بما أنزل . لم يكن المسلمون يهجرون فيه جواهرهم ولآلئهم لخزيفات يستجدونها من أيد أشحة بها لأنها لا تملك غيرها ، ولا يدعون شرع أحكم الحاكمين لشرع بشر من ماء وطين ، وكان من مشاغل علمائهم البحث في الحسن والقبح هل هما شرعيان أو عقليان وكثر في ذلك الكلام ، فلما صرنا إلى هذه الأيام ذهب ذلك الخصام وحل مكانه الوئام . واصطلح أهل عصرنا من الناشئة والشبان على أن الحسن ما حسنه (أولئك ...) والقبيح ما قبحوه ، وارتضينا كلنا هذه النتيجة التي انتهينا إليها ، وصممنا الوقوف عليهـا ، وسكن الجدال فلا قيل ولا قال ، وكفى الله (المؤمنين) القتال ، والحمد لله على (كل) حال .

وأما (قلة المال) فلأن أجر القاضي الشرعي في بلادنا أي مرتبه قليل قليل ، وهو أدنى من سائر الحكام المدنيين ؛ مع أنه يشترط فيه إجازة (ليسانس) الحقوق ، والفوز في الامتحان المسلكي ، وسبق الاشتغال مدة في المحاماة ... وهذا حديث له مكان آخر .

وأما (اكتساب العلم) فهو النعمة المفردة بين نقم القضاء المتعددة ، اللهم بعد نعمة الثواب إذا كان الله يكتبه لمقصر مثلي لا يستحقه بعمله ولم تصف له نيته ولم يتجرد بعد عن حب الشهرة والجاه ، وإن ضعفت رغبته فيهما وهانا عليه — إن المطالعة هي نعمة هـذه المحنة في المهنة ، ولقد كنت أطالع دائماً وأنا معلم ، بل إني لا أعرف أنه مرّ عليّ يوم واحد منذ عقلت إلى اليوم لم أقرأ فيه شيئاً ، غير أني استفدت من القضاء الأنس بكتب الفقه والاستمتاع بها مثل استمتاعي بكتب الأدب أو قريباً منه . وعندي مجموعة منها صالحة إذا أنا استمررت على النظر فيها رجوت أن أكون يوماً من الأيام من أوعية هذا العلم . ذلك لأني أدأب على القراءة ولا يمنعني من السؤال عما لا أعرف حياء ولا كبر ؛ ولأن لي بحمد الله ذاكرة لا تمسك النصوص بحروفها ولا الأرقام ولا الأبيات ، غير أنها في حفظ المسائل ومواطن وجودها من المجاميع . وما أعهد أني نسيت مسألة قرأتها أو سمعتها ، وما أعهد أني تعرفت بإنسان وحفظت اسمه إلا بعد المخالطة الشديدة الزمن الأطول ، ثم إني أنسى اسمه إذا فارقته مع أني لا أنسى الوجه ولو رأيته مرة واحدة ، ولا أعرف تعليل هذا الأمر

وأما (ازدياد أعداء) القـاضي العادل القائم بإحقاق الحق ، والموظف النزيه المستقيم ، فشيء مشاهد مسلم به لا يحتاج إلى بيان . وإذا كان قد روى عن أبي ذر أنه قال (كلمة الحق ما تركت لي صاحباً) وذلك على عهد الصحابة وفي أفضل القرون ، فما بالك بعصرنا ؟ وماذا يقول القاضي وما قضية تعرض عليه إلا وفيها اثنان يقضي لأحدهما على الآخر ، فمن قضى عليه جعله عدواً له ماعدا النادر الأندر من الناس الذي يرضى بالحق ولو كان على نفسه . وأكبر المصيبة أنه قد يكون المبطل المقضي عليه ، أو الشفيع المردودة شفاعته كبيراً في قومه ، وجيهاً في بلده ، فإذا ألزمته ما يلزمه شرعاً أثار عليك الشعب والحكومة ، وافترى عليك الفِرَى ، وأساء فيك رأي رؤسائك فآذوك وضروك وأخروا ترفيعك . والمعروف عند أولي الأمر أن الموظف الصالح هو الذي لا يسخط عليه أحداً ولا يثير مشكلة ، ولا يكون ذلك لقاض عادل وموظف نزيه ، وإنما يكون للنافق في جيبه ألف وجه في كل وجه مائة لسان ، يقابل كلا بالوجه الذي يحبه ، ويخاطبه باللسان الذي يرضيه

وخلاصة القول أن القضاء (حمل ثقيل) وهم طويل ، ولو أن الله أغناني عنه وكتب لي أن أعيش بقلمي ومؤلفاتي ، أو لو أني رزقت مرتبة أهل الورع لما أقدمت عليه ولآثرت التعليم فهو أسلم ، ولكني وقعت والله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وإن وسعي وغاية جهدي العزم الصحيح وبالله التوفيق على أن لا أحكم في قضية ما لم أعرف حكم الشرع فيها على مقدار طاقتي فأسير عليه ، وأن لا أتعمد الزيغ والظلم تعمداً ، ولا أنوي الميل مع أحد الخصمين ، وأن لا تأخذني في الحق رغبة صديق ولا رهبة ذي سلطان . أما الخطأ فلا أملك دفعه إلا بالانتباه ، أما الجهل فلا أقدر معه إلا على التعلم والسؤال

هذا وقد فسروا حديث القاضي والقاضيين أن القاضيين اللذين في النار هما قاض يقضي بالجور وقاض يقضي بالجهل . ونحن نسأل الله لنا ولكل محب للحق أن يوفقنا إلى اتباع الحق ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العمل بما علمنا ويزيدنا علماً .

(النبك — سورية) **علي الطنطاوي**

نظام الصدقات فى الاسلام

للسيد على حسين الوردى

إن علم المالية العامة علم حديث ، ولم يعر الناس التفاتهم إليه إلا فى هذه العصور الأخيرة وذلك بعد أن تطورت الحكومات الحديثة وتشعبت وظائفها وانتشرت فى الناس مبادئ الديمقراطية

لقد كانت الشعوب – فيما مضى – لا يعنون بمالية الحكومة من حيث وارداتها أو مصروفاتها إذ كانوا يعتبرونها مما يخص الملك ومن يلوذ به من الوزراء والعمال ... وكانت الحكومات القديمة بدورها لا تهتم إلا بتوفير المال لخزينة الملك مستعملة فى ذلك كل ما تستطيع من وسائل مشروعة أو غير مشروعة . فلم تكن – كالحكومات الحديثة – توجه قسطاً كبيراً من عنايتها إلى العدل فى فرض الضريبة ، وفى توزيع عبئها توزيعاً مناسباً بين طبقات الأمة ، وإلى إنفاق الواردات العامة فيما ينفع الناس ويزيد الرفاه فى المجتمع(١)

وقد كان الملك – الذى كانت الحكومة القديمة ممثلة فى شخصه – يتبع فى إدارة ماليته العامة النظام الفردى إذ كان يعتبر المال المجموع ملكاً خاصاً له يتصرف به كما يشاء ولذا كان يسعى جهده لجباية أكبر كية ممكنة من المال ، وصرف أقل ما يمكن منها ، ثم توفير المقادير المتبقية استعداداً للطوارئ أو إشباعاً لرغباته الشخصية التى كان لها إذ ذاك المقام الأكبر فى إعداد الميزانية العامة . ولقد كان بعض الملوك يصرفون جزءاً مما يجمعون فى الأعمال والمشروعات العامة ، ولكنهم ما كانوا يعتبرون ذلك حقاً واجباً عليهم إنما هو فضل على الناس ومنه يتفضلون بها عليهم .

ولم تكن الضرائب المباشرة معروفة حينذاك ، فكانت الحكومة تعتمد غالباً على الجزية من القبائل المغلوبة أو على أملاك الدولة ومناجمها أو على ضرائب المكس والغرامات والمصادرة ...

وقد لجأ الأثينيون والرومان أخيراً إلى الضرائب المباشرة وقت الحرب فقط . وإن عبقرية الرومان الإدارية قد أدت بهم إلى ابتكار نظام بديع فى جباية الضرائب ، ولكن هذا النظام لم يكن يعنى بشىء من التوزيع العادل فى فرض الضرائب إنما كان موجهاً نحو الكفاءة فى جبايتها فقط(٢)

هذه صورة مختصرة وددنا أن نظهر بها للقارئ حالة الأمم قبيل ظهور الإسلام ، من ناحية المالية العامة لكى تتضح له الخطوة الجبارة التى خطتها الدولة الإسلامية فى هذا السبيل ، ولكى يدرك أيضاً أهمية تلك الخطوة فى إرشاد الناس إلى جلالة هذا الموضوع وفى توجيه العالم نحو هذا الوضع الذى تتمتع به الأمم الحديثة اليوم فى تنظيم ميزانياتها على أساس العدل والمنفعة العامة

إننا نجد – للمرة الأولى فى التاريخ – وذلك على عهد الإسلام تلك العناية الكبرى التى توجه نحو أموال الأمة فى جبايتها وصرفها وفى اعتبارها أنها لا تخص فرداً معيناً ، إنما هى أموال الأمة جميعاً ويجب أن تنفق على مصالحها الحيوية بكل دقة

ولا حاجة بنا أن نذكر هنا ما كان الخلفاء يلزمون أنفسهم به – فى العناية بأموال الأمة – من شدة وتقشف . وإن ما يرويه التاريخ عن عمر بن الخطاب أو على بن أبى طالب أو غيرهما لدليل كاف على عظم تلك الخطوة التى خطاها المجتمع على عهد الإسلام فى سبيل التمدن الحقيق

لسنا نود التوسع فى هذه الناحية فهى أوضح من أن تحتاج إلى توسع ، ولكننا نريد أن نبحث فى ناحية أخرى من هذا الموضوع ، وهى ناحية العدل فى توزيع عبء الضريبة على الأفراد إذ هى فى الحقيقة من أعظم النواحى شأناً فى علم المالية العامة

إن من الهين – نسبة – أن تعد للضرائب إدارة كفؤة تستطيع بها أن تجهز للأمة ما تحتاج إليه من مال فى سبيل مصالحها العامة ، ولكن الصعوبة كل الصعوبة هى فى فرض الضريبة العادلة التى تنتج خير ما يمكن من الآثار الاجتماعية والاقتصادية . حقاً لقد شغلت هذه النقطة أقلام الباحثين فى هذا الزمن أكثر مما شغلتهم أية ناحية أخرى من هذا العلم الواسع .

لقد كان الرأى السائد منذ آدم سميث أن الفرد يجب أن يؤدى إلى الحكومة مبلغاً يتناسب مع جسامة موارده الخاصة . يظهر أن فى هذا الرأى شيئاً من الحق ، إذ من العدل أن يساهم الفرد فى مالية الدولة بالنسبة إلى أرباحه أو ثروته التى يتمتع بها فى ظل تلك الدولة(١)

ولكن قد يعترضنا فى ذلك رأى له وجاهته : فهل يجوز أن يؤخذ من أولى المكاسب الضئيلة عشر ما يكسبون مثلاً ، ويؤخذ

(١) Lutz, Public Finance (٢) Lutz, Public Finance

(١) Adam Smith, Weatth of Nations.

العشر كذلك من أولئك الأغنياء والموسرين الذين تأتيهم الأموال سيولاً كل حين ... أفى هذا عدل ؟

وهل إن وطأة الضريبة التي يشعر بها أولئك الكاسبون الضعفاء تساوى أو تقارب ذلك الأثر الذي يكاد لا يحس به الأغنياء عند إعطاء عشر ما يحصلون عليه سنوياً من الأموال الطائلة ...

اختلف الكتاب حول هذه النقطة الحساسة ، ولا يزال حتى الآن ناشباً بعض النشوب ، بيد أن معظم الكتاب المحدثين قد أجمعوا أخيراً على أن من العدل ألا تكون نسبة الضريبة متساوية على جميع الأفراد ، وهى ينبغى أن ترتفع شيئاً فشيئاً كلما زادت أرباح الفرد أو ثروته مائة بعد مائة ، وهذا هو ما نجده اليوم مطبقاً فى أغلب الأمم الراقية . وقد وصلت النسبة فى بعض الدول إلى ٨٪

وإذا رجعنا إلى النظام الذى كان متبعاً على عهد الإسلام ، نرى أن المشرع الإسلامى قد فطن إلى هذه النقطة ، ونجد أن الدولة الإسلامية قد سارت حسب تلك الطريقة :

يحدثنا أبو يوسف عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً فى الصدقة فقرنه بوصيته ولم يخرجه حتى مات ، فعمل به أبو بكر ثم عمر من بعده ، فكان فيه : فى كل أربعين شاة شاة واحدة حتى تصل إلى مائة وعشرين ، فإذا زادت فشاتان عن كل أربعين حتى تصل إلى مائتين ، فإذا زادت فثلاث شياه حتى ثلاثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة شاة[1] ... »

هذا مثل واحد نورده للقارئ يتضح له فيه أن هذا النوع من الضرائب قد طبق فى الإسلام قبل ما يناهز الثلاثة عشر قرناً من تطبيقه أخيراً فى الأمم الحديثة .

ويجدر بنا أن نذكر أن النسبة المتصاعدة هذه فى فرض الضريبة لم تستعمل إلا حديثاً جداً ، وذلك تحت ضغط المبادئ الديمقراطية والاشتراكية التى تغلغلت أخيراً فى صميم المجتمع

ولا تعجب — أيها القارئ — إذا علمت أن من كان يقول بها قبل جيل أو جيلين كان يعتبر من الشيوعيين أو الفوضويين وكان يتهم بأشنع التهم وأبشعها

أجل ، ولا يزال بعض الكتاب المشهورين حتى اليوم يؤمنون بوجوب تشجيع الإنتاج والجهود المربحة حيث ينبغى ألا يصادر قسم كبير من الأرباح بهذا النوع من الضرائب[1] . هذا ولكن الرأى الغالب اليوم والذى يحتمل أن يسود العالم غداً يؤيد تلك الضريبة ذات النسبة المتصاعدة ، ويرى من الإنصاف أن تكون الوطأة التى يشعر بها دافعو الضريبة متساوية فى الثقل لدى الجميع ، أغنياء وفقراء ، فكلما كان المشرع حريصاً على العدل فى توزيع الضريبة ، كانت النسبة ذات تصاعد أعظم .

ولا يعزب عن البال أن من أهم الضرائب الحديثة هو التقليل من ذلك الفرق الشاسع فى توزيع الثروة بين الناس ، حيث يموت البعض جوعاً بينما يلعب الآخرون بالمال لعباً

قد لا نخطئ الحق إذا قلنا إن الشرع الإسلامى كان يرمى إلى نفس الأهداف التى يرمى إليها اليوم المشرعون فى هذا الموضوع . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إنه قد فاقهم فى بعض النواحى حقاً إن الدولة الإسلامية كانت أول دولة فى التاريخ سنت نظاماً فى الضرائب ابتغت فيه العدل وتوزيع الثروة العامة على أساس المساواة

ثم ينبغى ألا ننسى بأن معظم الضرائب كانت — فى ذلك العهد — ضرائب مباشرة حيث لا يخفى ما لهذا من الأهمية فى تاريخ الضرائب . لقد كانت الضرائب المباشرة لم تفرض فى الأمم القديمة — كما قلنا آنفاً — إلا نادراً وذلك عند الحرب إذ لم يكن الإدراك السياسى قد وصل إلى تلك الدرجة التى يستسيغون بها فرض الضرائب مباشرة

والضرائب المباشرة بلا ريب هى المرحلة التى توصل إليها المجتمع فى تطوره السياسى والاجتماعى

وهناك نواح أخرى فى ضرائب الإسلام تتجه فى مراميها إلى نفس الهدف الذى ذكرناه آنفاً ألا وهو العدل ، وذلك مثل عدم استثناء النبلاء والطبقات الأرستقراطية من الضريبة ، وهو ما كان شائعاً فى العالم حتى القرون الأخيرة ، ومثل التفريق فى نسبة الضريبة على إنتاج المكابدة وإنتاج اليسر ... الخ . وعسانا نستطيع أن نوفى ذلك حقه فى فرصة أخرى

(بيروت — الجامعة الأمريكية) **على حسين الوردى**

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ٣٤ ، ١٨

(١) Bastable, Public Finance

من غزل الملوك

قصيدة للسلطان سليم فاتح مصر

للأستاذ عبد الله مخلص

وقع في الكلمة التي نشرتموها في (العدد ٤٠٨) من (الرسالة) بعنوان «من غزل الملوك» بعض أغلاط مطبعية مثل «أن الرشيد أغار على أبيات ابن الحكم الأموى»؛ وصوابها «أن ابن الحكم الأموى أغار على أبيات الرشيد». كما أن عجز البيت الأول من أبيات المعز لدين الله الفاطمي: (تلك المحاجر «بالمحاجر») صوابه: (تلك المحاجر «بالمعاجر»)

ورأيت بهذه المناسبة أن أبعث إليكم بقصيدة السلطان «سليم» التي اقتصرت على ذكر بيت واحد منها في تلك الصفحة، وهو ما كنت اطلعت عليه في المصادر التركية في ترجمة السلطان المشار إليه. أما القصيدة كلها، فقد عثرت عليها في مخطوط اقتنيته أخيراً اسمه «بستان العارفين ونزهة الناظرين» جمع الحاج أحمد بن حسن الشامي، ويقول: إنه شرع فيه وأتمه في جامع السفاحية بحلب المحمية في سنة ١٠٤١ هـ:

البـــدر أشرق بالجمال عليهِ
والسلسبيل يسيل من شفتيه
والغصن نال اللين من عطفيه
قمر يصول ولا وصول إليه   جرح الفؤاد بصارمىْ لحظيْهِ

وأحلّ في وسط الفؤاد مقامهُ
نشق المحبّ من الوشام خزامه
وافى بوصلٍ والجمـــال أمامه
ما قام معتدلاً يهزّ قوامه   إلّا تهتّكت الستور عليهِ

يمشى بعجبٍ في غلائل سندس
ألوانهــا كبنفسجٍ في نرجس
كأسى نديمى والمدامة مؤنسى
يا طيب ليلتنا ونحن بمجلس   نهض الحبيب لنا على قدميهِ

شقّ القلوب بورده وشقيقهِ
ونمـــا على عشاقه بعقيقه
وهما على كأســاته برحيقه
يسقى المدامة من سلافة ريقه   ويخصّنا بالسحر من عينيهِ

نلنا المسرّة ساعة بجوارهِ
وقد ارتقينا للهنـــا في داره
وأعمّنـــا من خمرة بعقاره
عيناه نرجسنا وآس عذاره   ريحاننا والورد من خدّيهِ

الخال من مسكٍ يفوح بندّهِ
يسطو عليّ بجزره وبمـدّهِ
سـعد السعود وفي إليّ بسعده
كتب المهيمن في صحيفة خدّهِ   لاماً وعقرب فوقها صدغيهِ

جن الظلام على الضيا فتبسّماَ
والمسك في زهر الرياض تنسّماَ
نمّ العـــذار بخدّه فتحكّما
ما الشَّعر نمّ بعارضيه وإنما   أصداغه جارت على خدّيهِ

لمّا أتى بجحافلٍ من جندهِ
فأردت رشف رحيقه من شهدهِ
دبّ العـذار على صحيفة خدّهِ
يا شعر في بصرى ولا في خدّهِ   إنى أغار من النسيم عليهِ

ملك يجـور على الملوك بظلمهِ
لم يخشَ من جور الزمان وجرمه
ناديتُ من فرط الهيام وغمّهِ
عجبى لسلطان يعمّ بحكمه   ويجور سلطان الغرام عليهِ

إنى بأوصـــاف المحبّة عائذٌ
وببابٍ من أهواه شخصى لائذٌ
جيش المحبّـة في فؤادى واقذٌ
والناس تحت يدى وحكمى نافذٌ   وأنا وكلّ الناس طوع يديهِ

الطرف منّى في محبّتـه عمِى
والدمع يجرى في خدودى عندمِ
وعروس مكّةَ والحطيم وزمزمِ
لولا الإلهُ وحرّ نار جهنّمِ   لعبدته وسجدت بين يديهِ!



أجوبة عن أسئلة

وجّه إليّ الأديب محمد محمد مالك في العدد ٤٦٠ من الرسالة أسئلة تتعلق بالأمراض العصبية والأمراض النفسية نجيب عنها فيما يلي :

١ — الأمراض العصبية Nervous Diseases :

أمراض ناتجة من التهاب أو انحلال الأعصاب أو النخاع الشوكي أو مراكز المخ الحركية والإحساسية والحاسية والتوازنية ويتمخض عنها أنواع مختلفة من الشلل أو إحساسات غريبة أو حركات اختلاجية أو اهتزازية أو تشنجات في العضلات أو اضطراب في الحواس أو اختلال في التحكم في قضاء الحاجة أو فقدان التوازن ، أو تشكيلة من بعض هذه الأعراض

٢ — الأمراض النفسية Neuroses أو Psychoneuroses

أمراض تتمخض عن أعراض متولدة من عقد دفينة في العقل الباطن . وكثيراً ما يقلد المريض بها أعراض الأمراض العصبية من غير قصد

وأهم الأمراض النفسية القلق العصبي (أو بالأحرى القلق النفساني) والهستريا والوسواس والخور النفساني (النورستانيا) والهجس بالمرض hypochondria

٣ — الأمراض العقلية Psychoses

أمراض تتولد من انحلال خلايا القشرة المخية والألياف المرتبطة بها خصوصاً في مناطق المخ الصامتة silant areas

وليس من الضروري أن يكون المريض بأعصابه عليل النفسية ولكن قد تنجم من الأمراض العصبية عقد نفسية مثل عقدة الضعة Inferiorty complex

وهناك أمراض تحدث أعراضاً عصبية وعقلية معاً كالشلل الجنوني العام الناتج من الزهري فقد يصاب المريض به بهواجس العظمة أو سواها مصحوبة أو متبوعة بشلل في عضلات الجسم واهتزازات في الأعضاء واللسان الخ ...

٤ — القلق النفساني :

هو الخوف من شيء مجهول للمريض ويعرفه فرويد بكونه خوفاً من خطر غريزي، وقد ينتج مثلاً من وجود عقدة الخصى castration complx في العقل الباطن . وهذه العقدة وليدة تهديد الأم لطفلها باستئصال أعضائه الجنيسية بسبب عبثه بها

على أن أي حادث مخيف يعرض للانسان قد يتسبب عنه القلق في المستقبل باختفاء ذكرى الحادث في العقل الباطن وبقاء القلق متسلطاً على العقل الواعي . ويعزو المريض قلقه عادة إلى أسباب لا تمت إلى السبب الأصلي بصلة

٥ — الإجرام :

يعتبر المجرم مريض النفس أو مريض العقل . وقد سبق أن أرسلت إلى مجلة الرسالة الغراء بحثاً في هذا الشأن

٦ — شيطان الشاعر :

يرى يونج أن العقل الباطن سجل لاختبارات البشر الأزلية؛ فالسحر والشياطين والجن والأصنام والأديان والآلهة والمرأة والرجل إلى غير ذلك ممثلة جميعها في العقل الباطن فيما يسميه النماذج القديمة archetiypes . وعند ما تزود هذه النماذج بطاقات عقلية كبيرة يعبر الشاعر عنها تعبيراً تتفاوت درجة غموضه أو وضوحه حسب قوة الرقيب censor وحين يتناولها العقل الواعي بالصقل والتهذيب تصبح منسجمة ومنطقية في الظاهر

وتمثل الرموز التي يلجأ إليها الشعراء للتعبير عن أغراضهم لغة الرجل البدائي الكائن في سريرتنا

وليس شيطان الشاعر سوى عقله الباطن ، أو بالأحرى ما يسميه يونج « اللاوعي الشامل » collective unconscious

وتبدو قوة هذا الشيطان الهائلة عندما يستحوذ على عقل الشاعر الواعي شيء من الذهول . وهنا تكون المقطوعات الشعرية شبيهة بالأحلام

٧ — الوراثة :

يرث الإنسان بعض صفات والديه وأجداده العقلية والجسمانية في شكل ظاهر والبعض الآخر في شكل كامن ، وهذا هو السبب في كون بعض مختلي الأعصاب والمجرمين ينجبون ذرية صالحة جسمانياً وعقلياً ، ولكن هذه الذرية ورثت اختلال الأعصاب والإجرام في شكل كامن بدليل أن هذه الصفات الكامنة قد تصبح ظاهرة في أبنائهم وأحفادهم

محمد حسني ولاية

جواب

أشكر للأستاذ (عبد الفتاح اسماعيل — بفرشوط) تحيته وحسن استقباله للرسالات وأجيبه عما سأل فأقول :-

« أعم الرجل وأخول » يرويان بالبناء للفاعل والمفعول فهو مُعِم مُخوِل بالكسر والفتح أى كثير الأعمام أو كريمهم ،

وقد روى بالكسر قول حسان « قبر ابن مارية المعِم المخول »

وروى بالفتح قول امرئ القيس « بجيد معَمّ فى العشيرة مخوَل »

وفى بعض ما يروى عن اللغويين هنا اضطراب ، والمعتمد ما ذكرنا

المدنى

قد يحتاج المرسل الى قيد

أرسل الزميل الفاضل الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى كلمة عن اختلاف الأزهريين وبواعثه التى ليست للحق والله — دائماً — وقد كان موفقاً فيما عرض له فى إيجاز وتهكم ، إلا أنه استكثر من ضرب المثل للذين أوذوا بسبب تفرق رأى الأزهر فيهم لجانبه الصواب فى بعضها . لقد قال : « والزيات ، وطه حسين ، والعقاد ، وشلتوت ، والزنكلونى ، ومبارك وهيكل ، وغيرهم قد ذاقوا من ذلك ما ذاقوا »

أعتقد أن من هؤلاء السادة — الذين أجلهم جميعاً — من سمت به عظمته ونبل مقصده وجميل توجيهه ، عن أن يكون فى أمره خلاف بين الأزهريين أو غيرهم . ومنهم من أجمعوا على جلالة منزلته فى العلم والبحث ، وعرفان حظه من الإخلاص والعاطفة الدينية . ومنهم أخيراً من قعدت به منزلته المحدودة عن أن يكون موضع حديث الأزهريين عامة ، بله اختلافهم . والأمر أوضح من أن يكون فى حاجة إلى تمثيل أو تعليل !

محمد يوسف موسى

حول العقاد وابن الرومى

تكشف تعقيبُ الأستاذ عباس محمود العقاد على اعتراضى الذى وجهته إلى حضرته على صفحات (الرسالة) الغراء عن ثمرة نفذت منها إلى حاجتى التى قضيتُها بردّه الكريم علىّ ...

أما ما يستأهل التعقيب ويدعو إليه ، فهو ما تفتح عنه ردّه من ظاهرتين خطيرتين : الأولى ما اقتضته الأمانة الأدبية التى فى عنقى من أن أصحح نسبة البيتين اللذين قلت عنهما : إنهما لابن الرومى ؛ وقال عنهما أدب العقاد : لا أراهما مما يعاب سواء نسبا إليه أو إلى غيره . فأقول : إن هذين البيتين من نظم كاتب هذه السطور ، وقد أردت أن أختبر بهما ذكاء العقاد

والظاهرة الثانية هى ما نضحت عنه معانى هذين البيتين من جنون الفكرة ، وطلاء التعبير اللذين عزّب فهمهما على فطنة أديبنا الكبير . فمن هم بنو النضر ؟ ومن أولئك الألفان الرضّع على التحديد ؟

(ابو درويش)

(الرسالة) : ذلك عبث كنا نحب للكاتب وهو من رجال التعليم فيما نظن أن يتكرم عنه احتراماً للرجل الذى يكتب إليه ، وللقارئ الذى يكتب له ، وللمجلة التى يكتب فيها ، وللأدب الذى يعلّمه

كم ذا ؟

... ضمنى وبعض الأصدقاء مجلس ، وتناشدنا أطراف الحديث ، فجرى على اللسان قول حافظ :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... فى حب مصر كثيرة العشاق

وهنالك تضاربت الأقوال فى « كم ذا » ، وهل يجوز ذلك فى لغة العربية ؟ فقال قوم كما جاز فى ما ومن الاستفهاميتين . كأنما يقيسون ، وقد قال الآمدى وغيره — من علماء الأصول — إن اللغة لا تثبت بالقياس.... وقال آخرون : إن ذلك غير معهود فى الفصيح الصحيح من كلام العرب ... وهكذا أخذنا نقيمها إلى جهة ، أو نتلمس لها شاهداً ، فلم نجد إلا ما قال المتنبى : « وكم ذا بمصر من المضحكات » ، على أنها فى كثير من طبعات ديوانه وماذا . . . وأخيراً آثرنا أن نطرح هذا الإشكال — إن صح أن يكون — على قراء (الرسالة) الغراء علّنا نجد عندهم شفاء الغليل .

ابراهيم على أبو الخشب

جريدة الاصلاح فى عامها السادس

دخلت زميلتنا الإصلاح الأسبوعية فى عامها السادس مسددة الخطى مؤيدة العزيمة ، وستصدر فى خلال هذا الشهر بهذه المناسبة عدداً خاصاً محلى بصور أبناء الدقهلية البارزين من الأدباء والشعراء والفنانين لتكون أداة التعريف بينهم . وقد انضم إلى تحرير هذه الجريدة الرشيدة بعض كبار الأدباء ليساعدوها على تأدية رسالتها فى الأدب والإصلاح .

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين